

محطات مهمة في التاريخ الإسلامي الأترتي. إسماعيل إبراهيم المختار.

(هذه دراسة قدمت على شكل محاضرة في المؤتمر السادس للمجلس الإسلامي الأترتي المنعقد في 11-13 من شهر يوليو عام 2008 في مدينة واشنطن بأمریکا).

مقدمة:

الوجود الإسلامي في أترتيا له جذور عميقة تمتد إلى فجر الإسلام وبداياته الأولى. وهو وجود ظل ينمو ويتردد على مر الأيام والسنين ؛ وله محطات مهمة ، ومعالم بارزة ، وخصوصيات واضحة. وهذه الدراسة محاولة للإشارة لبعض هذه المحطات المهمة مع التركيز على الملامح العامة ، دون التفاصيل التاريخية الدقيقة. وقد إخترت لهذه الدراسة خمسة محطات رئيسية. وهي للإشارة لا للحصر ، والغرض منها إعطاء لمحة عامة عن هذا التاريخ ، وربط بعض جزئياته المختلفة ، واستخلاص نتائجها العامة.

المحطة الأولى: هجرة الصحابة إلى أرض الحبشة.

هاجر صحابة الرسول (ص) إلى الحبشة بعد إشتداد أذى قريش عليهم ، وشد معاناتهم من وطأة التعذيب. وكان الذي أشار عليهم بهذه الهجرة الرسول (ص) حيث قال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق"¹. وقد تمت الهجرة على دفعتين. الدفعة الأولى في السنة الخامسة من البعثة (615م) ، وكان فيها أحد عشر رجلا وأربع نسوة. ومن ضمنهم عثمان بن عفان ، وزوجته رقية بنت رسول الله (ص) ، وعبدالرحمن ابن عوف وغيرهم. وهذه الدفعة عادت إلى مكة بعد فترة وجيزة. الدفعة الثانية ، وكانت تتكون من 83 صحابيا و18 صحابية ، وكان فيها جعفر ابن أبي طالب (ابن عم رسول الله) ، وزوجته أسماء بنت عميس². ولحقت بهذه المجموعة فيما بعد دفعة أخرى من اليمن فيها بضع وخمسون رجلا فيهم الصحابي أبو موسى الأشعري. وهذه المجموعة خرجت قاصدة المدينة ، ولكن السفينة ألفت بهم في السواحل الغربية ، فأقاموا في الحبشة مع من كان سبقهم إليها من الصحابة. بقي جعفر ومن معه من الصحابة في أرض الحبشة إلى السنة الثامنة من الهجرة ثم عادوا بعدها إلى المدينة. وعلى هذا تكون الفترة الإجمالية لإقامة الصحابة في الحبشة في الهجرتين الأولى والثانية 13 عاما تقريبا. ويشير الأستاذ فتحي غيث في كتابه "الإسلام والحبشة عبر التاريخ" إلى تقدير البعض لعدد من هاجر ومن ولد هناك ب 600 شخص. وقد أكرم النجاشي وفادة الصحابة ، وبسط عليهم حمايته ، ورفض تسليمهم لقريش. وتختلف الروايات في تفاصيل هذه الهجرة ، ولذلك تكثر تكهنات المؤرخين. والمستخلص من مجموع هذه الروايات هو حدوث هذه الهجرة - فقد أجمعت المصادر الإسلامية على ذلك- وحسن وفادة النجاشي لهم. وقد ثبت في صحيح البخاري في (كتاب الجنائز) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات. ويستدل الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ، برواية أبي هريرة لهذا الحديث ، بأن وفاة النجاشي الذي أسلم كان بعد فتح خيبر ، وأن النجاشي الذي أرسل إليه الرسول رسالة يدعوه إلى الإسلام - حين أرسل الرسل بعد صلح الحديبية - كان نجاشيا آخر غير النجاشي الذي إستقبل الصحابة.

وقد أثار بعض الكتاب المعاصرين تساؤلات حول الموضوع الذي هاجر إليه الصحابة ، والمكان الذي أقاموا فيه. والبعض قد جاء بمزاعم ليس لها أي سند تاريخي. ويؤكد مفتي أترتيا السابق الشيخ إبراهيم في مقال له³ : بأن هبوط الصحابة كان في ميناء مصوع (باضع قديما) ، ويستشهد برواية

ابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر حيث ورد فيها: "فودع عثمان نبي الله صلى الله عليه وسلم وقبل يديه ، وبلغ المسلمين رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهم إني خارج من ليلتي وسنقيم بجدة ليلة أو ليلتين فإن أبطأتم فوجهي إلى باضع...." ويشير الأستاذ فتحي غيث ، مستشهدا بما جاء في سيرة ابن هشام ، إلى "أن مكان هؤلاء المهاجرين كان قريبا من النيل الأزرق في قلب هضبة الحبشة حيث كانت عاصمة النجاشي الكبير"⁴. ومن المعلوم تاريخيا أن قاعدة ملوك الحبشة كانت في هضبة إقليم التيجراي. وفي منطقة قريبة من حدود أثيوبيا وأرتريا اليوم -في إقليم التجراي- يوجد قبر منسوب إلى النجاشي ، وهو قبر قديم ذكره فقيه عرب الجزائر في كتابه "فتوح الحبشة" حيث ذكر أن الإمام أحمد ابن إبراهيم زار ذلك القبر في أثناء فتوحاته في القرن السادس عشر الميلادي. وعلى هذا يمكن القول بأن الصحابة هبطوا في باضع (مصوع) ، ومنها اتجهوا عبر الأراضي الأرترية إلى مقر النجاشي في الهضبة.

من الصعب تحديد الآثار التي تركتها هذه الهجرة بدقة ، لكنه يمكن على الإجمال الإشارة إلى أنها أوجدت أول إتصال للإسلام بالحبشة ، وتركت إنطباعا حسنا لدى المسلمين عامة ، وأدت إلى دخول النجاشي في الإسلام (سرا). ولا يستبعد أن يكون آخرون من أبناء الحبشة قد دخلوا في الإسلام في هذه الفترة. ومدة بقاء الصحابة في الحبشة ، وكثرت عددهم ، وتعاطف النجاشي معهم مما يرجح ذلك. وعلى كل فهذه محطة مهمة مهدت لدخول الإسلام وانتشاره في أرض أرتريا.

المحطة الثانية: فتح مصر وجزيرة دهلك الأرترية.

فتحت مصر في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب في سنة 20 من الهجرة -كما ذكره ابن الأثير في الكامل- على يد الصحابي عمرو ابن العاص. وفتحت جزيرة دهلك في وقت لاحق في العصر الأموي في عام 84هـ الموافق 702هـ. وكانت دهلك قبل الفتح الإسلامي مأوى للقراصنة الذين كانوا يهددون الشواطئ الحجازية. وقد جردت الدولة الإسلامية عدة حملات للقضاء عليهم ، ولكنها لم تغلح في استئصالهم إلا بعد بسط سيطرتها الكاملة على جزيرة دهلك.

الفتح الإسلامي لمصر سهل الطريق لهجرات التجار ، والدعاة ، والقبائل العربية المسلمة إلى مملكة النوبة في السودان ، وإلى مناطق قبائل البجة التي تمتد إلى أرتريا. وساهم فتح جزيرة دهلك في تأمين البحر الأحمر ، وتوطيد الوجود الإسلامي فيه ، وازدهار الحركة التجارية ، وهجرة بعض الأسر والقبائل العربية. وقد ساهم الصراع السياسي بين البيت الأموي والهاشمي ، ثم البيت العباسي والأموي ، ثم البيت العباسي والعلوي ، وما حدث في الحجاز من ثورات في هجرة مجموعات من الأسر الحجازية ، واستقرارها في أرتريا وماجاورها من البلدان. وكثير من القبائل الأرترية اليوم تنسب نفسها إلى أصول حجازية. وبصرف النظر عن صحة هذه النسب بالتحديد فهي بجملتها تشير إلى اتساع نطاق الهجرة. ويشير الأستاذ عثمان سبي إلى الآثار التي تركها فتح دهلك فيقول "وأقام الأمويون القلاع والحصون وأمنوا طرق التجارة ، فازدهرت البلاد وتشجع العرب على إستيطان المنطقة وتعميرها"⁵. ويشير أيضا إلى أن "القرون الثلاثة التي تلت القرن السابع الميلادي [كانت] فترة تصاهر بين العرب النازحون مع قبائل البجة التي إكتسحت المنطقة والقبائل الكوشية القديمة. وعن طريق المصاهرة والتجارة إنتشر الإسلام"⁶ وهكذا كان انفتاح باب الهجرة عن طريق مصر ، والبحر الأحمر بعد الفتوحات محطة مهمة ساهمت في إنتشار الإسلام واستقراره في السواحل والمنخفضات الأرترية.

المحطة الثالثة: ظهور الإمام أحمد ابن إبراهيم وتنامي النفوذ العثماني.

ظهر الإمام أحمد ابن إبراهيم الملقب بالأشول (1506-1543م) سلطانا على مملكة عدل ، وكان أول ما أقدم عليه هو رفض دفع الجزية لملك الحبشة النصراني في الهضبة. وأدى هذا إلى اشتعال حرب

ضروس إستمرت 15 عاما ، استطاع في خلالها أن يكتسح الإمام أحمد هضبة الحبشية ، ويدخل عاصمة الملك ، ويصل إلى الهضبة الأرتزية ومشارف مدينة كسلا. عجز الملك لبنا دنقل – ملك الهضبة الحبشية - من صد هجمات الإمام أحمد ، فاستنجد – بإشارة من أمه – بالبرتغاليين ، فجاؤ بحاميتهم لمساندته ؛ فاستنجد الإمام أحمد فيما بعد بالعثمانيين ، وحسنت الجولة الأولى من المعركة لصالح الإمام أحمد والعثمانيين ، ولكن الإمام أحمد خسر الجولة الثانية ، وقتل في المعركة ، واستعاد الملك جلاوديوييس – خلف الملك لبنا دنقل - السيطرة على الهضبة.

إنتصارات الإمام أحمد واستعانة الملك لبنا دنقل بالبرتغاليين كان لها آثار مهمة ، ومن أهمها إنتشار الإسلام أثناء فتوحات الإمام أحمد ، وتدويل الصراع في المنطقة ، وتعاضم التنافس بين العثمانيين والبرتغاليين. وقد حسم هذا الصراع في نهايته لصالح الدولة العثمانية التي أصبحت لها السيطرة الكاملة على البحر الأحمر. تنامي النفوذ التركي كانت له آثار مهمة؛ منها: إزدهار مدينة مصوع وحرقيقوا ، وبروز أسرة النائب البلوية⁷ وقد توارثت هذه الأسرة منصب النيابة لمدة ثلاثة قرون. وكان نوابها يتبعون إسما للحاكم التركي في الحجاز ، ولكنهم في الغالب كانوا مستقلين في حكمهم. إزدهرت مدينة مصوع في هذه الفترة ، حيث شيدت فيها المساجد ، ودور العلم ، وتأسس فيها القضاء وأصبحت أهم مركز للإشعاع الحضاري الإسلامي في أرتريا. وظلت مصوع لعدة قرون عصب الوجود الإسلامي في أرتريا ، وقلبه النابض ، ومخزونه التاريخي الثر. ومع الأسف فقد تعرضت هذه المدينة العريقة للحروب الطاحنة في حروب التحرير- التي دمرت الكثير من معالمها التاريخية المهمة ، وشردت أسرها العريقة التي كانت محور الحياة فيها.

المحطة الرابعة: ظهور الحركات الصوفية وامتدادها في أرتريا.

ظهرت الحركات الصوفية بمختلف مدارسها في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي ، وأصبح لكثير من هذه الطرق إمتدادات واسعة في داخل أرتريا. ومن هذه الطرق التي وجدت موطن في أرتريا: الطريقة القادرية ، والشاذلية ، والسمانية ، والإدرسية ، والتيجانية ، والأحمد إدريسية ، والمرغنية. وظهرت بجانب هذه الطرق أسر دينية قامت بنشر الإسلام في ربوع أرتريا⁸ ومنها عد شيخ ، وعد معلم ، وعد كبير ، وعد سيدنا مصطفى ، وبيت الشيخ إبراهيم خليل وفقه حرك وغيرهم. وأكثر الطرق الصوفية إنتشار وأبعدها أثرا في أرتريا هي الطريقة المرغنية. ومؤسس الطريقة هو محمد عثمان الميرغني المولود في مكة في عام 1793م⁹. تتلمذ الميرغني في مكة على الشيخ أحمد علي ابن إدريس رئيس الطريقة الشاذلية ، وسافر فيما بعد إلى السودان وتزوج هناك ، ورزق بابنه الحسن. عاد محمد عثمان الميرغني إلى مكة فيما بعد ، وتوفي في الطائف. تولى زعامة الطريقة في السودان ابنه الحسن ، واتخذ من مدينة كسلا قاعدة له. وفيما بعد استقر فرع من الأسرة المرغنية في أرتريا. وقد شمل نفوذ الطريقة مناطق واسعة من أرتريا ووصل إلى عمق الهضبة الأرتزية والأثيوبية. وكان شيوخ الطريقة وخلفاؤهم موضع حفاوة وترحيب الحكومة الإيطالية. كان للطرق الصوفية دور مهم من ثلاثة نواحي: أولها ، نشر الإسلام بين القبائل. ثانيها ، ترسيخ الإسلام وتثبيت دعائمه. ثالثها ، صد المد التبشيري النصراني. يقول الأستاذ سعيد ناود¹⁰ "وقد إعتنق الباريا والبازا الإسلام على يد محمد عثمان بعد منتصف القرن التاسع عشر. أيضا نشر السيد محمد عثمان الإسلام بين قبائل البيلين ، والماريا ، وبيت جوك ، والمنسح ، وبعض قبائل الحباب في الساحل". وكثير من الأوراد والأذكار المعتادة في أرتريا اليوم أصولها صوفية. ورغم الإنحرافات التي ظهرت عند بعض منتسبي هذه الطرق ، إلا إنه لا يمكن إنكار الدور المهم للطرق الصوفية في نشر الإسلام ، وأن ظهورها كان محطة من أهم المحطات التاريخية.

المحطة الخامسة: معركة القلابات ، والإحتلال الإيطالي ، وظهور النهضة الإسلامية الحديثة.

ظهر الملك يوحنا (يوهنس) الرابع (1831-1889) كأقوى ملك في الهضبة الحبشية بعد قضاء حملة اللورد نابير البريطانية على سلفه الملك تيدروس. ظهور يوهانس كان مؤشر خطر كبير للإسلام. جاء يوهانس ومعه مشروع لتوحيد الدين وفرض المذهب اليعقوبي الذي تتبناه الكنيسة القبطية في الإسكندرية على الجميع. ولذلك عقد في عام 1878 مجمعا يضم رجال الكنيسة ، حيث قرروا فيه الإقتصار على المذهب اليعقوبي ، وأعطاه مهلة عامين للمسيحيين المنتسبين إلى المذاهب الأخرى ، وثلاث سنوات للمسلمين ، وخمس سنوات للوثنيين. ولكن الملك يوهانس لم يمهل المسلمين الفترة المحددة لهم ، وبدأ بحملة تنصير إجبارية على الفور. ويذكر السير توماس أرنولد¹¹ نقلا عن المؤرخ مساجا أن الملك أرغم 50 ألف مسلم على التعميد ، كما أجبر عشرين ألفا من إحدى القبائل الوثنية ، ونصف مليون من قبائل الجالا. ويشير السير توماس أرنولد إلى أن قرار التعميد الإجباري لم ينتهي المسلمين عن عقيدتهم ، وأن ذلك الإجراء مازادهم إلا تشبثا. وقد فر في هذه الفترة الكثير من المسلمين من المناطق التي كانت تحت نفوذ الملك يوهانس إلى مناطق أخرى. ولم تكن أرتريا بمنأى عن يوهانس ، فقائده الشهير "راس ألو" كان يحكم الهضبة الأرترية ، وكانت أسمره قاعدته ، ولو استمر حكم يوهانس وتحقق له ما أراد لما بقي مسلم في الحبشة وأرتريا. ولكن يشاء الله عز وجل أن يشغل يوهانس بأمور أخرى كانت تهدد مركزه وسلطانه.

كان يوهانس مهتدا من ناحيتين. من ناحية الحركة المهدية في السودان ، والإيطاليين الذي وجدوا لهم موطئ قدم في السواحل الأرترية. حاول يوهانس أن يكسب ود الحركة المهدية حتى يتفرغ للإيطاليين ، ولكن المهديين لم يستجيبوا له. فخرج بجيش جرار يقدر بربع مليون جندي¹² ، ودارت رحا المعركة بينه وبين الحامية المهدية المكونة من 60 ألف جندي بقيادة الزاكي طمل في منطقة القلابات ، ولكن يشاء الله أن يقتل يوهانس في بداية المعركة ، فيتبدد جيشه ، وتفشل مشاريعه.

هزيمة يوهانس في القلابات فتح الباب لإيطاليا ، فأكملت إحتلال أرتريا ، وأعلنتها مستعمرة إيطالية في عام 1890م. الإستعمار الإيطالي على مساوئه كان أكثر تسامحا مع المسلمين. بل - ولأسباب سياسية - كان يساند المشاريع الإسلامية - مثل بناء المساجد - ، ويلبي مطالب المسلمين الدينية ، ويحترم شيوخ و خلفاء الطريقة المرغنية. في هذه الفترة إتجه عدد كبير من الشباب الأرتري إلى الأزهر ، وامتلا رواق الجبيرة بهم. ولعل السبب في ذلك استتباب الأمن في البلاد ، وتيسر سبل المواصلات في العصر الإيطالي.

تلقى هؤلاء الشباب العلم في الأزهر ، ورجع جلهم إلى أرتريا ، وبذلك توفر لأرتريا في هذه الفترة من العلماء مالم يتوفر لها في أي وقت آخر. وكانت هذه النخبة من خريجي الأزهر أساس النهضة العلمية والإسلامية في أرتريا منذ الأربعينيات. وفي أيامهم عمرت المساجد بالدروس العلمية ، وانشئت المعاهد والمدارس الإسلامية ، وأقيمت الهيئات والمؤسسات الإسلامية. وكان لهذه النخبة دور مهم في نشر الوعي الإسلامي ، ومحاربة التقاليد الفاسدة والبدع السائدة ، ونشر الثقافة العربية والإسلامية.

استمر عطاء هذه النخبة إلى منتصف السبعينيات ، ثم بدأت مؤشرات التراجع تظهر في داخل أرتريا ، حين غادر من بقي من هذه النخبة أرتريا إثر الإضطرابات التي تفاقمت في البلاد ، وعزف الجيل اللاحق من خريجي الأزهر ، والجامعات الإسلامية في السعودية من العودة إلى أرتريا نتيجة للأوضاع المضطربة. وهذا أدى إلى ظهور فراغ كبير في النشاط العلمي والدعوي في أرتريا.

الخاتمة:

هذه هي إذا المحطات الخمسة المهمة ، وهي محطات تشير بمجملها إلى دخول الإسلام إلى أرتريا في فترة مبكرة ، وإنتشاره بين الناس عبر الوسائل الدعوية السلمية ، وتفاعل المجتمع الأرتري مع محيطه الإسلامي الكبير.

-
- ¹ البداية والنهاية لإبن كثير الجزء 3.
 - ² يرى بعض المؤرخين أن جعفر كان مع الدفعة الأولى.
 - ³ عقوم رظن أ (Mukhtar.ca) صفحة مقالات "النجاشي".
 - ⁴ الإسلام والحبشة عبر التاريخ لفتحي غيث.
 - ⁵ تاريخ أرتريا لعثمان صالح سبي.
 - ⁶ نفس المصدر
 - ⁷ المستعمرة الأرترية - مفوضية مصوع الإقليمية- لدانته أودو ريتسي
 - ⁸ العروبة والإسلام بالقرن الأفريقي لمحمد سعيد ناود.
 - ⁹ Islam in Ethiopia, J. Spencer Trimingham.
 - ¹⁰ العروبة والإسلام بالقرن الأفريقي لمحمد سعيد ناود.
 - ¹¹ Preaching of Islam by Sir Thomas Arnold.
 - ¹² علاقة السودان بأثيوبيا عبر التاريخ لعثمان سبي.